# المحاضرة الثالثة: فكر ابن خلدون

**أولا: ابن خلدون (المولد والنشأة)** : هو عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد ب ن إبراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون.

هو أبو زيد عبد الرحمان ابن خلدون، ولد في تونس، وقد كان يتصف بحسن الهيئة، وجمال الصورة، وقوة الجأش، وعلو الهمة ورفعة القدر، وسعة المعرفة، وسداد البحث وكثرة الحفظ، وحلاوة الحديث، والاعتداد بالنفس في حياء يكسب المهابة والوقار، وقد وثق به السلاطين، واستعمل كممثل شخصي لهم، اشتهر كرجل علم وكبحاثة، له معرفة تامة بالأمور حتى لفت أنظار السلاطين وجذب اهتمام الأمراء والحكام. ولد العلامة ابن خلدون في أول شهر رمضان سنة 732هـ الموافق ل1332م، في إفريقيا (تونس حاليا).

ترعرع ابن خلدون وسط أسرة، يرجع بأصلها إلى اليمن في حضرموت، هاجر جده خالد (خلدون) إلى الأندلس، وتحديدا في قرمونة إبان القرن الثالث الهجري، ثم سكن وعائلته اشبيلية، وبسقوطها انتقل بعض أفراد عائلته إلى سبتة، وهي مدينة ساحلية في المغرب الأقصى، ثم إلى بونة (عنابة)، في الشرق الجزائري، ليستقروا فيما بعد بالعاصمة التونسية تونس (افريقية) مسقط رأس العلامة عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون.

اشتهر جدود أسرته بالعلم والسياسة، وقد أورد ابن خلدون في كتاب رحلته وصف المؤرخ الأندلسي ابن حيان لأسرته كالتالي:"وبيت بني خلدون إلى الآن في اشبيلية، نهاية في النباهة ولم تزل أعلامه، بين رياسة سلطانية ورياسة علمية"، كما عرفوا أيضا بالجاه والثراء، حيث كانوا يملكون أراضي خصبة، ويكسبون ثروات كبيرة أخرى، فقد كانوا يتمتعون بامتيازات اجتماعية واقتصادية عظيمة، وينعمون بالجاه والسعة، عهد الدولة الأموية، وفي الدولة الحفصية كذلك، نظير المناصب السياسية المرموقة التي كانوا يشغلونها. اتسمت مرحلة تعليمة الأولية في تونس، والتي دامت عشرين عاما في الفترة مابين 732هـ-751هـ، بثرائها وتنوعها في مجالات معرفية كثيرة، ترنحت بين العلوم النقلية والعقلية

على العموم، يمكن القول أن ابن خلدون قد نشأ في بيئة دينية وعلمية، محفزة على الاجتهاد وطلب العلم، وانه قد عاصر أبرز مشايخ المغرب العربي، في الأدب والفقه وعلوم اللسان وغيرها من المعارف، التي عرفت في عصره، حيث تتلمذ على يدي أغلبية مشايخ تونس، إضافة إلى أشهر علماء المغرب الأقصى والجزائر (تلمسان)، فكان لكل ذلك تأثيرا عظيما في تكوينه الفكري والمعرفي، فألف عددا من الكتب نوردها على التوالي:

-كتاب التاريخ المعروف ب"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وقد ورد في سبع مجلدات، أولها "المقدمة"

-التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا أو "رحلة ابن خلدون"

-أخبار دولة بني الأغلب بافريقية

-شفا السائل لتهذيب المسائل.

وتجمع هذه المؤلفات بين التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة، وتندرج كلها تحت علم كبير عرفه ابن خلدون ب "علم العمران".

**-منهج ابن خلدون:** إن الفضل في تقدم علم الاجتماع يعود إلى العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، وهذا الطرح قائم على أسس موضوعية محورها تأكيد أن تقدم أي علم وخاصة في العلوم الاجتماعية قائم على عدة معطيات هي في جوهرها تعبر عن التأصيل ترتبط بمجموعة أفكار تعبر عن التأصيل لهذا العلم، وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا ان ابن خلدون وعلاقته بعلم الاجتماع ترتبط بتأصيل وتأسيس هذا العلم، فابن خلدون احتفظ بالريادة في طرح الابعاد الفكرية لما أسماه علم العمران، وفي ذات الوقت وضع القواعد العلمية التي تؤسس لدراسة هذا العلم. رفض ابن خلدون المنهج الفلسفي القائم على الاستقراء والذي كان مبنيا على اساس البحث فيما يجب ان يكون عليه الانسان، معتبرا اياه منهجا صالحا للوعظ والخطابة، وان منهجه قائم على دراسة الواقع كما هو في محاولة تفسيره لفهم الالية التي تسير بها الاحداث الاجتماعية.

هذا المنهج العلمي الذي اتبعه ابن خلدون مازال الى يومنا الحاضر يعتبر من القواعد العلمية في البحث في علم الاجتماع، وهو ما ساعده في مستوى اخر من بناء مقاربته النظرية والتي تعتبر اولى النظريات في علم الاجتماع التي قامت على مفهوم الصراع الاجتماعي بين الفئات المختلفة، والتي استطاع ابن خلدون ان يعيد من خلال استخدام البناء النظري الجديد الى تفسير الية نشوء الدولة وخاصة في المجتمعات العربية التي عاصرها، والية التغيير الاجتماعي التي تمر بها المجتمعات البشرية، اذ حاول ابن خلدون اعادة تفسير ماضي المجتمعات والية نشوء الدولة والمجتمع ونهوضها وانحلالها وتفككها، معطيا لمفاهيم مركزية دورها في بناء المجتمع، وخاصة مفهوم العصبية الذي اعتبره عنصرا لقيام المجتمعات في عصره وربما مازال والى حد بعيد مؤثرا في حياتنا الى هذه اللحظة

**ثانيا: مناخ نشأة علم العمران البشري:** إن المناخ الاجتماعي والسياسي والتاريخي، الذي نشأ فيه ابن خلدون والذي دون تفاصيله ضمن مذكراته "رحلة ابن خلدون"، قد أثر على آرائه وفلسفته ونظريته الاجتماعية، فحياة ابن خلدون كانت مليئة بالنشاط السياسي والفكري، فقد شغل مناصب سياسية وإدارية هامة، كالحجابة وكتابة العلامة (ديوان الرسائل) والقضاء، لدى العديد من السلاطين والأمراء في المشرق والمغرب، ولم ينقطع في ذات الوقت عن الدرس والبحث والتدريس والتأليف، ولاغرو في أن يتأثر ابن خلدون بخصائص أسرته أيضا، كونها جمعت بين العلم والسياسة، فانعكس ذلك على ميوله ورغبته في الاستزادة العلمية، وتقلد المناصب السياسية كذلك. قضى ابن خلدون معظم حياته مسافرا متنقلا بين دول عديدة.

ان الفترة التاريخية التي عاش فيها ابن خلدون، وهي النصف الثاني من القرن 14م، قد اتسمت بالاضطرابات والتقلبات والانقلابات السياسية، التي شهدتها دول المغرب العربي، وكذلك المشرق العربي، فقد شهد ضعف وانهيار العديد من الدول في الوقت الذي بدا فيه نهوض وتقدم دول العالم الغربي، مما دفع به إلى التساؤل والبحث حول العوامل التي أدت إلى نشأة الدول وتدهور حالها وانهيارها، وقد اخذ بعين الاعتبار كل العوامل التي تفضي إلى تطور وتبدل الأوضاع الاجتماعية والسياسية، التي عاشها وتعامل معها في تلك الفترة، فتناول كل جوانب المجتمع الاقتصادية، الجغرافية القانونية، الدينية التي لها تأثير على هذا التغير.

**ثالثا: ابن خلدون ومجالات علم العمران البشري**

إن تقلد ابن خلدون للعديد من المناصب السياسية، من خلال أسفاره وتنقلاته في دول المغرب والمشرق العربيين، واحتكاكه المباشر بالقبائل البدوية فيها، خاصة في المغرب الأوسط، قد أكسبته مادة نظرية خام وثرية، حول طبيعة المجتمعات واختلاف أحوالها، وان معايشته للاضطرابات والقلاقل السياسية قد حركت فضوله، لبحث عوامل تدهور الدول وانهيارها، ومن ثم أخذ ابن خلدون يفكر في نشأة الدول ومراحل تطورها وانحطاطها وزوالها، من خلال ملاحظاته ومقارنته لطبيعة التجمعات البشرية، التي قسمها إلى بدو وحضر، وحدد بحكم مخالطته واحتكاكه بكليهما خصائص الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل منهما، وعلاقتها بالبيئة الجغرافية التي تتواجد فيها، وهكذا بدأت تتكون وتتبلور ملامح علم جديد، لم يدركه احد من العلماء من قبله، اصطلح عليه ابن خلدون ب "علم العمران البشري".

يمهد ابن خلدون عرضه لعلم العمران البشري، من خلال حقيقتين اجتماعيتين تتمثل الأولى في **"التعاون"** وهو ضرورة الاجتماع الإنساني، كون الإنسان ضعيف وليس بمقدوره العيش منعزلا، فلا بد من تعاون أفراد العشيرة على إنتاج مقومات حياتهم.

ومثلما يحتاج الإنسان إلى غيره في إشباع حاجاته فانه يحتاج أيضا إلى الدفاع عن نفسه من غيره، وهنا يشير ابن خلدون إلى الحقيقة الاجتماعية الثانية والمتمثلة في **"العدوان"** والذي يعتبره فطريا بين سائر الحيوانات، لذلك خلق الله لكل منها عضوا لتدافع به عن نفسها، وكذلك خلق الله للإنسان يدا وفكرا، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع.

يذهب ابن خلدون إلى أن هاتين الحقيقتين الاجتماعيتين (التعاون) و(العدوان) أو (الصراع) هما عمليتين ضروريتين للاجتماع الإنساني، فهما اللتين تحفظان بقاء الإنسان ونوعه، وهذا معنى (العمران)، الذي جعله موضوعا لهذا العلم، غير أن الاجتماع هو في حاجة إلى "وازع" يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباع البشر من عدوان وظلم، لأن الأسلحة ليست بالكافية في دفع العدوان عنهم، لأنه فطري فيهم، لذلك فان هذا الوازع لا يكون في غيرهم من الحيوانات لقصور مداركهم وقدرتهم عن رده، وبذلك يكون هذا الوازع من البشر أنفسهم، حيث يكون لأحدهم الغلبة والسلطان على غيره من أفراد قبيلته أو جماعته، حتى لا يقع العدوان بينهم (وهذا هو معنى الملك)، ويضيف ابن خلدون أن بين كل الكائنات الحية ثمة من يترأسهم كما في النحل والجراد، ومن ثم فانه للبشر من الحكم الوازع او قيادة سياسية.

غير أن الحياة الاجتماعية لا تستقر بالسياسة فحسب، بل يضيف إلى هذا العامل عاملين آخرين، هما البيئة الجغرافية والاقتصاد، آو ما عبر عنه بالصنائع، وتمثل هذه العوامل معا مرتكزات نظرية العمران البشري

**نظريات علم العمران البشري عند ابن خلدون:** عرض ابن خلدون في مقدمة كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، نظرياته في العمران البشري والتي شملت ما يلي:

-التطور الاجتماعي/ -اثر المناخ والبيئة الجغرافية على الحياة الاجتماعية

-أنماط الحياة البدوية والحضرية/ -الاجتماع السياسي/ -الاجتماع الاقتصادي

**01/التطور الاجتماعي:** أشار ابن خلدون إلى فكرة التطور وماثل بين حياة الكائن العضوي وحياة المجتمع البشري، وجعل للدول دورة للحياة تأخذ شكل مراحل انتقالية تطورية حتمية عبر التاريخ، تبدأ من مرحلة النشأة ثم النمو والازدهار، فالأفول والزوال، لذلك تنتمي نظريته في هذا المجال إلى نظريات فلسفة التاريخ او الحضارة، حيث يقرر ابن خلدون في تناوله لعلم التاريخ حقيقة اجتماعية هامة، مؤداها ( إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول)، لكن ابن خلدون لا يترك هذا التطور للعشوائية بل يربطه بعامل يعتبره أساسيا وهو العامل السياسي، ويفسر ذلك بأن لكل دولة سياستها التي تشمل عادات واعراف واحكام و تشريعات يقتضيها الحكم والسلطان، تحدد انماط السلوك والممارسات الاجتماعية، وبحلول دولة جديدة او حاكم جديد تشرع سياسة جديدة، قد تبيح وتسمح ببعض العوائد وتمنع بعضها الاخر، غير ان العوائد القديمة لا تندثر تماما، وانما تمتزج بالعادات الجديدة، وهكذا ينشأ الاختلاف الحضاري بين الاجيال بشكل تدريجي.

**02/اثر المناخ والبيئة الجغرافية على الحياة الاجتماعية:** خصص ابن خلدون المقدمة الثانية من كتابه في التاريخ حول قسط العمران من الارض وما تحتوي عليه البيئة الطبيعية او الاقاليم من اشجار وانهار، واثرها على امزجة وطباع ومعاش الجماعات الاجتماعية، حيث ميز ابن خلدون بين سبعة اقاليم مختلفة، معتمدا على تقسيم الجغرافيين القدامى للارض، وان كل اقليم ينقسم إلى عشرة أجزاء، ثم يلاحظ ابن خلدون ان المناخ يلعب دورا في ألوان البشر وأخلاقهم وطباعهم، وانه مرتبط كذلك بحالة العمران البشري. فقد لاحظ ابن خلدون ان الأقاليم السبعة مختلفة عن بعضها البعض، من حيث الحرارة والبرودة والاعتدال، ويرى أن الأقاليم المعتدلة من حيث الحرارة والبرودة تساعد على وفرة العمران، على عكس الأقاليم التي تشتد فيها الحرارة او البرودة فإنها لا تساعد على ذلك.

**03/أنماط الحياة البدوية والحضرية:** يفرق ابن خلدون بين نمطين من الحياة الاجتماعية، هما (البداوة) و(الحضارة)، على ان البدو (أهل البادية) يمثلون مرحلة العمران الأولى أو الشكل البدائي للعمران، السابق على الحضر، وهم يختلفون عنهم من حيث طبيعة اقتصادهم، وقد صنف نشاطهم الاقتصادي إلى نوعين، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها، وان اجتماع البدو وتعاونهم في المعاش والقوت انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ولا يزيد عن حاجتهم لعجزهم عن تحصيله.

ثم يعرض ابن خلدون كيف يتطور نمط الحياة البدوية إلى الحضرية، حيث ربطه بزيادة الإنتاج الاقتصادي المفضي إلى الرفاهية والازدهار، وبالتالي تغير نمط حياة البدو الى حضر، فالحضر اذن على عكس البدو، يعيشون في ترف ورفه كونهم يحصلون ما يزيد عن حاجتهم، فهم ينتقون الملابس الفاخرة من انواع الحرير والديباج، ويتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المساة ويعالون صرحها، ولأنهم يمثلون مرحلة متطورة من البداوة فانهم لايشتغلون في الفلاحة والرعي، وانما ينتحلون في معاشهم الصنائع والتجارة التي تنمي مكاسبهم وتزيد من رفاهيتهم، وعليه يتميز الحضر بالاستقرار والازدهار في حياتهم خلافا للبدو الذين يقتصرون على الضروري في احوالهم. وبذلك يقرر ابن خلدون ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه، وان البادية اصل العمران.

وحول الطباع والسمات الثقافية التي تميز العمران البدوي عن الحضري، يعقد ابن خلدون مقارنة بينهما، اذ يقرر ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر، وسبب ذلك ان حياة البدو هي حياة الفطرة الاولى وأن النفس البشرية في بدايتها تكون على الفطرة، ولأن من خواص البدو التعاون على الكسب والمعاش وهي من عوائد الخير ترسخت فيهم، وأما أهل الحضر ولكثرة انشغالهم بفنون الملاذ، والاقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، فقد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر.

وعلاوة على ذلك يذهب ابن خلدون الى ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر، ومرد ذلك الى انغماس اهل الحضر في النعيم والترف، وتركهم أمر المدافعة عن أنفسهم وأموالهم الى الحاكم الذي يسوسهم، والحامية او اعوان الامن في حراستهم، أما أهل البدو فهم متفردون عن المجتمع، وبعيدون في الضواحي عن الحامية، ويدافعون عن أنفسهم بما يملكون من أسلحة، ومن ثم صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية

04/**الاجتماع السياسي**: اسهم ابن خلدون اسهاما اصيلا في ميدان الاجتماع السياسي، حيث تناول العلاقة بين المجتمع والدولة، وهو الموضوع الرئيسي الذي يعالجه تخصص علم الاجتماع السياسي، والذي خاض فيه العديد من علماء الاجتماع المعاصرين، الا ان ابن خلدون قد تميز عنهم جميعا، لانه جعل نشأة الدولة وتطورها عبر مختلف عهودها مرهونا بقوة **العصبية**، وهي نزعة طبيعية في البشر.

**والعصبية** مفهوم أساسي في الفكر الخلدوني، اقترن بالقبائل البدوية التي لاتزال تعيش مرحلة الفطرة في حياتها، ولم تتحضر بعد، ولذلك فان جل العلاقات الاجتماعية المنتجة داخلها، تحكمها صلات الرحم والقرابة والنسب، هذا الاخير الذي قد يكون عاما كالالتحام الذي يكون بين البطون داخل القبيلة الواحدة، أو خاصا وهو أشد التحاما، مثل العائلة الواحدة

**علاقة العصبية والدولة**: ان العلاقة بين الدولة والعصبية عند ابن خلدون علاقة جدلية فكلما كانت العصبية موجودة في الدولة كلما كانت الدولة قوية، وكلما ضعفت العصبية ضعفت الدولة، وهذه العصبية لدى ابن خلدون تمر بثلاث مراحل هي:

المرحلة 01: تتمثل بمهاجمة البدو للحضر والقضاء عليه، وتشكيل المدينة الجديدة، في هذه المرحلة تكون العصبية في الدولة في اقوى درجاتها، فسكان البدو مازالو بطبائعهم الاولى وعلاقتهم مازالت متماسكة وعصبيتهم قوية.

المرحلة 02: هي مرحلة نشوء الدولة، في هذه المرحلة تنحسر العصبية عند الفئة الحاكمة فقط، اذ ان العصبية بشكلها الاول تبدأ بالانحسار، بسبب تعقد حياة المدينة وتشعبها، ويبدأ البدو بامتهان مهن الحضر وتبدأ الحرف في الظهور، وتتحول علاقة الفرد بالمجموعة الى علاقة اقتصادية، اذ لايتطلب من الفرد توفير الحماية لنفسه، فالدولة تقوم بذلك، وهو مايعني ان التحدي المشترك الذي كان يسود في البيئة البدوية قد انحسر، وهو مايؤدي الى انحسار العصبية.

المرحلة 03: تتمثل في مرحلة هرم الدولة وشيخوختها اذ يبدأ الضعف يظهر في كافة مفاصلها، وهو ما يؤهل لبدء تفككها كنتيجة لانغماس افرادها في حياة الترف، في هذه المرحلة تكون المدينة او الدولة في اكثر مراحلها ضعفا، مما يؤهل البدو للانقضاض عليها واحتلالها واعادة الدولة من جديد.

**05/الاجتماع الاقتصادي:** تناول ابن خلدون في نظريته الاقتصادية في العمران البشري، التداخل بين مختلف النشاطات الاقتصادية ومقومات البيئة الطبيعية، ومتطلبات البيئة الاجتماعية، وقد تدرج في تبيان ذلك منطلقا من شرح مفهومين أساسيين في الحياة الاقتصادية للعمران، **هما الرزق والكسب**، ويقصد **بالرزق** تلك المنفعة أو الفائدة التي يجنيها الإنسان عن طريق سعيه أو اجتهاده، إما من كسبه أو عمله وإما دون سعي منه في ذلك، وهو ما يحصل اليه من الله تبارك وتعالى كالمطر المصلح للزراعة وامثاله، واما **الكسب** فهو السعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل، ويعني به ابن خلدون العمل، والعمل ضروري في العمران البشري، وان كان الله تعالى يرزق عباده بما يحصل لهم بغير حساب، فالانسان لا ينتفع من حياته الا بالعمل او الكسب، لذلك فانه يعد قيمة الاعمال البشرية، كما يصنف ابن خلدون الكسب الى عدة اصناف، مثل: الصنائع كالحياكة والحدادة والنجارة...، ورعي الحيوانات او اصطيادها، وفلح الارض وزراعتها، التجارة بما فيها المعادن النفيسة كالفضة والذهب وكذلك الحديد والنحاس..، وقد يحصل ايضا عن طريق الغرامة او الجباية والتي تتحدد وفق قانون متعارف عليه.